

الفصل الأول

جغرافية بلاد العرب

تقع بلاد العرب بين الهند والصين وما والاها إلى الشرق ، وبلاد الحبشة والصومال والسودان ومصر ومن ورائها أوروبا إلى الغرب ، والعراق والجزيرة والشام إلى الشمال ، وجزيرة سقطرى وساحل أفريقية الشرقى إلى الجنوب . فهي ، إذن ، وسط العالم المعمور قديماً ؛ وهي بحكم موقعها وسيطة في تبادل سلع تلك الأقاليم المختلفة المناخ والمتباينة الغلات . وكذلك كانت منذ عرفها التاريخ قبل مولد المسيح عليه السلام بألف وخمسمائة عام .

وكانى بالطبيعة التي حابتها في توسط موقعها لم تقف عند هذا الحد من الحماية ، بل جاملتها في ناحية التضاريس كذلك ، بحيث تكون مزايا الموقع مخصصة لأهلها : ذلك بأنها أحاطتها بسور جد متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها . وما كان لأجنبي أن يتوغل فيها وهو إذا أراد دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية الأطراف وفيها كشبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات ، بينما بقيتها ينبت عشبها في الشتاء والربيع في مواطن مختلفة ومبعثرة ومتباعدة أحياناً ، بحيث لا يهتدى إليها إلا أهلها الذين نشأوا فيها وعرفوا مسالكها . وهم — على قلة عددهم — يتنقلون في جنباتها بمعيذهم وشأنهم وإبلهم ويقاسون شظف العيش .

وإذا أخذنا برأى بعض الجغرافيين وأدخلنا بادية السماوة والحماة في حدود جزيرة العرب ، كانت الكارثة أعظم على من تسول له نفسه اختراق إحداها فإنهما تكادان تكونان عديمتي الماء والنبات ، إذ لا عيون ولا آبار بهما . وغاية ما يبيل الصدى غدران أو قل برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ فيها ماء المطر ، وعليها علامات خاصة يعرفها أهل هذه الجهات ولا يفتن إليها غيرهم . ومثال ذلك أن خلفاء الإسكندر المقدوني حاولوا غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك .

فإذا اجتاز الأجنبي الحماة أو بادية السماوة وقطع النفود الكبرى اعترضته هضبة مرتفعة سميت نجداً لإرتفاعها ؛ وهي تشغل وسط الجزيرة منحدره في شىء من الإلتظام إلى الشمال الشرقى . ويفاجأ داخلها من ناحية الشمال بجبل شمر المسمى قديماً جبلى طيء : أجا وسلمى : وهما سلسلتان تبدآن قرب خير وتسيران متوازيتين تقريباً في اتجاه شمالي شرقى مسيرة ٥٦٠ كيلو متراً وهما من الجبال الوعرة على ما فيهما من مراعي ومزارع متفرقة أهمها حول حابيل التي اتخذها آل الرشيد عاصمة لهم إلى أن أخرجهم منها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢١ . فإذا اقتحم الأجنبي نحو نصف هضبة نجد اضطدم بسلسلة جبال أخرى أشد وعورة من جبل شمر هي سلسلة جبل طويق التي تبدأ شرقى مكة وتسير في وسط الهضبة نحو الشمال الشرقى . وفي وديانها المحصنة تحصيناً طبيعياً نشأت الدرعية وتقع في منخفض يطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض غير طريقين ضيقين لا يتسع الغربى منهما لأكثر من جمل واحد . ولما يعزب عن أذهاننا ما بذله إبراهيم باشا في الاستيلاء عليها ١٨١٨ .

ولا يكاد الأجنبي يتخطى جبل طويق وبقية الهضبة حتى يواجهه الربع الخالى الذى يشغل مساحة كبيرة فى الجنوب الشرقى من الجزيرة والذى ما يزال مجهولاً إلى اليوم على الرغم من تقدم وسائل الانتقال . وإذا كانت فى عمر الحظائر بقية فقد ينظر من فوق الهضبة إلى مشرق الشمس فىرى صحراء أقل خطراً من الربع الخالى هى النفود الصغيرة أو الشرقى . وإليكم ما كتبه عنها المرحوم أمين الريحانى وقد عبرها فى ركاب الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٤ :

« النفود بين القصيم والكويت ووراءها الدهناء . وكلها على اتساعها أجف من الإسفنج فى دكان عطار . النفود معدة جبال من الرمل تمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب وعرضاً من الغرب إلى الشرق وهى تدعى دعوصاً علو الدعص^(١) يتراوح بين ٥٠٠ قدم ، ٧٠٠ قدم (١٥٣ متراً إلى ٢١٤ متراً) . وبين كل دعص وآخر أربعة أميال نزولاً وصعوداً . أحد عشر دعص هى ، بل إحدى عشرة كربة كل واحدة أشد من الأخرى . إن أصعب السير على الركب والركائب هو السير فى النفود ، ولا أثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من أمواج رمالها : تصعد الذلول فى الدعص إلى رأسه وهى ترنج^(٢) ، فتغوص حتى الرسغ ، فتجىء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فثن الرحال من شدة الحال .

أما فى النزول فتنتمم من الدعص الذلول : فتروح هاوية غاوية ، فتغوص فى الرمل حتى الركاب . فتجىء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفيها للراكب خمس نكبات . النفود — ذلك البحر الرملى الذى تعالت أمواجه سخابلاً ،

(١) الدعص مايعبر عنه عادة بلفظ كتيب الذى يجمع على كشب وكشبان .

(٢) يغشى عليها .

وهبطت جباله أمواجاً ، فضائق في اجتيازه حتى صدر الدليل . وما كنت أظن ونحن نحوض عبايه أن له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب .

أما الدهناء فقليلة الكشب والتجوفات متنوعة المرعى غزيرة الأعشاب « وبعد ذلك يجد الأجنبي نفسه في سهل ماؤه الجوفى قريب من سطح الأرض ومن أجل ذلك سمى الحسا . وكان قديماً جزءاً من السهل الغريني الذي كونه دجلة والفرات حين كانا منفصلين . أما القسم الشرقي من ذلك السهل الغريني القديم فهو اليوم خليج فارس . ولا يصعب قطع الحسا إلى ساحل خليج فارس . أما إذا جاء الأجنبي من ~~الشرق~~ فعليه أن يحاظر بعبور البحر الأحمر ومن أسمائه القديمة خليج العرب وبحر فرعون — وهو بحر قليل المرافق الطبيعية كثير الشعاب والجزيرات المرجانية . ويقص علينا سترابون من صعوبات الملاحة في هذا البحر أن السفن التي كانت تمخره لم يكن لها بد من أن تقضى الليل راسية في مأمن خوفاً من أن تحطمها الجزيرات المرجانية . وأنه لا لقاء هذه الأخطار كانت القاعدة أن تسير السفن في هذا البحر نهائياً فقط . ويحدثنا أن أشد أجزاء هذا البحر خطراً الخروج من القلزم بسبب شدة الرياح وتغير اتجاهاتها .

ويأتى ابن جبير فيخوفنا أهوال السفر في البحر الأحمر فيقول « أرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة . فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها . وربما سنحت الجلبة (السفينة) بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تحللها فتسمع لها هداً يؤذن باليأس . فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً . فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لا إله سواه » .

ويضيف ما ينبغي أن يحرز الملاح من المهارة فيقول « وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناء هذه الشعاب أمراً ضخماً : يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » . فإذا عبر البحر بسلام حاول النزول بالبر فلم يجد على الساحل ثغراً يستحق الذكر ، فضلا عن أن الصخور المرجانية الغاطسة والجزيرات التي تحاذيه في أكثر أجزائه تجعل الملاحة خطيرة ، لأن ينبع وجدة والحديدة والنخا وما إليها مما نسميه ثغوراً ليست إلا قرى ساحلية ليس لها أهمية ذاتية جغرافية ، وإنما تدين بشهرتها لمؤخرها . ومثال ذلك أن جدة لم يكن ليعرفها المسامون جميعاً لولا أن في مؤخرها مكة المكرمة وما يرتبط بها من فريضة الحج . وما تزال صعوبة النزول بهذا الساحل ماثلة إلى اليوم فيما يعانيه حجاج بيت الله الحرام كل سنة من وقوف السفن بعيدة عنه وانتقالهم إليه في زوارق صغيرة . فإذا نزل السائح في الجزء الشمالي من الساحل الغربي فأمامه السهل الساحلي الضيق المسمى مدين وهو قاحل للغاية وبحسبنا دليلاً على ذلك قصة موسى عليه السلام وبنات شعيب . ويصادفه بعد ذلك سلاسل جبال السراة المعروفة باسم جبال الحجاز والتي تمتد من الشام إلى اليمن موازية لساحل البحر الأحمر بوجه عام . ويناهز ارتفاع بعض قممها هنا ٢٠٠٠ متر .

وإلى الشرق من السراة نطاق صحراوي من نوع النفود يأنس فيه المسافر بما يرى من الماء والعشب في بعض نواحيه ، وبما يسمع من الأهلين المثقفين من أن هذا العشب وذلك الماء هما اللذان أغريا العرب الأقدمين باتخاذ هذا

النطاق طريقاً لقوافلهم بين اليمن والشام ، وها اللذان ما برحا يعريان الحجاج والتجار بسلك هذا الطريق إلى اليوم . فإذا جاوز هذا النطاق الصحراوي الضيق نسبياً في مسيره إلى الشرق فهناك هضبة نجد بسلاسل جبالها ثم النفود الصغير ثم الدهناء ثم سهل الحسا إلى خليج العجم .

أما إذا اختار أن ينزل إلى البر في الجزء الجنوبي من الساحل — في الحديدية مثلاً — فصعوبة الساحل كما وصفنا ، إلا أن السهل الساحلي هنا أرحب صدرًا من سهل مدين ، وفيه أنهار صغيرة يصل بعضها إلى البحر ويقصر بعضها دون ذلك ، ولكنها مع هذا وبانضمام بعض العيون والغدران إليها ، تروى أجزاء من هذا السهل تكفي لإنبات المراعى في بعضه وزرع البعض الآخر ؛ لكن المسافر لا بد أن يشكو شدة الحر وركود الرياح ، وها السببان اللذان دفعا العرب إلى تسمية ما يقع من هذا السهل في الحجاز وعسير واليمن باسم تهامة ، لأن التَّهَمَ (بوزن تعب) هو عندهم شدة الحر مع ركود الرياح ويسرع المسافر إلى التخلص من هذا الضيق فيعتلى جبل السراة كما اعتلاه شرق مدين ، إلا أنه هنا يرتفع في بعض قممه إلى ٣٠٥٠ متراً ويتسع كثيراً إلى الشرق ، ويجيء بعده الربع الخالي وحاله أشهر من أن تعرف . والمحابة الثالثة التي ادخرتها الطبيعة لأهل هذه البلاد ، أنها بعد كل ما يقال عن وعورة سواحلها ليست خالية من الثغور الصالحة ، بل إنك لتجد في عمان صرفاً « مسقط » يفتح صدره للسفن المقبلة من جنوب فارس ومن الهند وما والاها شرقاً . وتجد إلى الشمال منها على ساحل الخليج الفارسي صرفاء أخرى اشتهرت منها في العصور القديمة جرة .

فإذا نظرت إلى الجنوب الغربي فهناك شعور جيدة أهمها عدن وتقع على خليج حسن تحيط به الجبال فتحمي السفن من العواصف . وقد بلغ من إحاطة الجبال بعدن أن الطريق منها إلى سائر اليمن منقور بعضه في الجبل . ومن أجل ذلك كانت عدن مخزن السلع من قديم الزمان ولا عجب فهذا الثغر الصالح يواجه الساحل الشرقي من أفريقية ذلك الساحل الذي اتصل العرب به في زمن مبكر وجلبوا منه الذهب والعاج والرقيق وبعض الأفاويه .

والمحابة الرابعة أن جزيرة العرب ليست كلها صحراء قاحلة كما يتبادر إلى ذهن الأجنبي عنها . فإنك إذا استنيت الربع الخالي وبادية السماوة والحماة ، وجدت صحاريها الأخرى يكسوها العشب في الشتاء والربيع ويهرع السكان إليها بقطعانهم كما هو الشأن في النفود الكبرى ، والحال أحسن من ذلك في الدهناء كما لمحت من وصف الريحاني لها .

وإذا انتقلت إلى الحجاز وجدت جزءا لا يستهان به من نوع المراعي الجيدة . والشأن في نجد خير من ذلك إذ لا يقل مقدار ما يصلح للرعى والزراعة عن نصف مساحته . وإلى الشرق من نجد توجد الحسا وهي كثيرة الماء والمرعى والزرع . وأفضل منها في هذه الناحية عمان حيث تجرى النهرات من الجبل الأخضر فيجود السهل الساحلي بالنبات والأشجار . فإذا نزلت وادي حضرموت فهو على مثل ذلك ، وإذا بلغت بلاد اليمن راعتك مزارعها وفاكهتها وأشجار بخورها وسمونها فنسيت أنك في بلاد يزعم الأجانب أنها كلها صحراء .